حافظ وشوقي

معارضة التاريخ

دواوين شوقي زاخرة بألوان شتى من الشعر التاريخي لأن شوقيًّا — كما قلنا — كان مؤرّخًا بطبيعته كما هو شاعر بسليقته... ولكن أبرز ما في الجانب التاريخي من شعره قصيدته الرائعة « كبار الحوادث في وادي النيل » التي تفتتح بها الجزء الأول من دواوينه وهي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة «جنيف» في سبتمبر عام ١٨٩٤ حينما ذهب مندوبًا عن الحكومة المصرية ، وكان لم يبلغ الثلاثين من عمره . وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة تسعين ومائتي بيت من قافية واحدة ، عرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور الى عهد نظمها ، وكان في عرضه للحوادث فنّانًا قبل أن يكون مؤرّخًا سارداً للحوادث ، فهو ينتقي من بين فرجات الحوادث اياتي بالملكة سريعة الومض قوية التعبير ليس فيها تزيُّد ولا طغيان على العرض التاريخي لتكون منها وثبةٌ للخيال وتلالٌ للفكر والتأمل ، فأنت ترى مواكب التاريخ منتظمة آخذة برقاب بعضها في نظام فنيّ ساحر لا يُملُّ .

ولشوقي ميزة في هذا اللون من شعره ، فهو بكلمة واحدة أو كلمتين أو شطرة من الشعر يسوق لك موكبًا تاريخيًّا طويلاً تستعرضه في شعره في لمح البصر وتكاد تشعر أن لم يفُتْك من هذا الموكب شيءٌ دقيق .

وهذه القصيدة — على حدّ تعبير الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) — « رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي وقف فيها الشاعر وقفة مصريّ صادق العاطفة تفيض عليه ربّة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ . أي منذ عرف الناس شيئًا اسمه التاريخ . وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ محلِّلَ النفس فخراً بمجد مصر حين يرتفع بها المجد الى عليا ذراه ، آسفاً حزيناً حين تمرُّ بمصر نكبات فلم ولا ،

مستفزاً للهمم حاثاً نعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده كي يعيدوا عهد الماضي وعظمته ... وتراه في انتقاله من الفخر الى الأسف الى الاستنهاض يسير به الحوادث متسلقاً متدفقاً فوق موج الماضي آتياً من لاهيات القيد كأنما هو قيثارة آلهة ذلك الزمان السعيد يدفع إليها كل جيل نسائمه فتنغني وتشدو بأهازيج النصر تارة وبترانيم المرثاة طوراً ويشجو الألم أحياناً » (١)

على أن القارئ لهذه القصيدة لا يحس فيها — على طول هذا العرض التاريخي — جفافاً ولا خروجاً على الروح الشعري، فقد كانت غنية شوقي الشاعرية فيها أكثر سيطرة على الموقف من فنيته التاريخية . ويرى الأستاذ عبد الحميد العبادي بك أن شوقياً كان « في هذا المجال يخطو فوق قمم الجبال وقلما يهبط الى القيعان والأودية . وهذا طبيعي فالمقام مقام الشعر لا مقام التاريخ بمعناه العلمي » (٢)

وقد استهل شوقي قصيدته بوصف رحلته في البحر وقال في مطلعها :

همّت الفُلكُ واعتراها الماءُ وحداها بمن تُقلُّ الرجاءُ

ثم بدأ يخاطب البخار ليتخلص من هذا الخطاب الى الفخر حيث يقول :

قلْ لبانِ بني فداد فقالى لم يجُز مصر في الزمان بناءُ
ليس في الممكنات أن تنقل الاجـ ـبال قسْرًا وأن تُنال السماء
أجفل الجنُّ من عزائم قوم ودانت لبأسها الآناءُ
شاد ما لم يَشِدْ زمان، ولا أنشـ ـأ عصر ، ولا بنى بناءُ
هيكل كسّر الديانات فيه فهي والناس والقرون هباءُ
وقبورٌ تحطّ فيها الليالي ويوارَى الإصباح والإمساءُ
تشتهي الشمس والكواكب منها والجديدان والبِلَى والفناءُ
فاعذر الحاسدين فيها اذا لا موا فصعبٌ على الحسود الثناءُ
زعموا أنها دعائم شِيدتْ يبيد البغي ملؤها فناءُ

(١) من مقدمة الدكتور هيكل باشا لقصائد الجزء الاول من الشوقيات
(٢) مجلة « الكتاب » ج ٤ — م ٢ ص ٨٨٢ الجزء العاشر ، اكتوبر سنة ١٩٤٧ ، السنة الثانية

دُمرَ الناسُ والرعية في تشـــييدها والخلائق الأسراء
أين كان القضاء والعدل والحكـــمة والرأي والنهى والذكاء ؟
وبنو الشمس من أعزّة مصر والعلوم التي بها يستضاء
فادّعوا ما ادّعى أصاغرُ آبيـــنا ودعواهمُ تمنّاً وافتراء
إن يكن غير ما أثرة نخارٌ فأنا منك يا نخارُ براء

ثمّ ينتقل شوقي بين عصور التاريخ المحيقة فيعرض لنا لوحات زاهية الألوان ولوحات أخرى قاتمة ، حتى يوفي على النهاية وقد اجتمعت له عدّة منها تتفاوت في فتنتها كما تتفاوت في ألوانها حسب الظلام أو النور الذي يغمر العصر .

فاذا تلمّسنا في ديوان حافظ أثر التاريخ المصري القديم في شعره وقعنا على قصيدته « مصر » التي أنشدها في الحفل الذي أقيم بفندق الكونتنتال لتكريم المرحوم سعد يكن باشا بعد عودته من أوروبا قاطعاً المفاوضة مع الانجليز ومستقيلاً من الوزارة ، وقد نشرت هـذه القصيدة في ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٢١ وجعلها على لسان مصر تتحدث فيها عن نفسها ، وقد بدأها بهذه الأبيات :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبُناة الاهرام في سالف الدهـــر كفَوْني الكلام عند التحدّي
أنا تاج العلاء في مفرق الشر ق وتُرّاته فرائد عقدي
أي شيء في الغرب قد بهر النا سَ جمالاً ولم يكن منه عندي ؟

ثمّ يستمر في هـذا الضرب من الفخر حتى يتذكر الجانب التاريخي فلا يعرض له إلاّ بالروح الخطابي الفاخر أيضاً فيقول :

قل لمن أنكروا مفاخر قومي مثل ما أنكروا مآثر وُلْدي
هل وقفتم بقمّة الهرم الأكـــبر يوماً فرَيتُم[1] بعض جهدي ؟
هل رأيتم تلك النقوش الروائع أعجزت طوق صنعة المتحدي
حالَ لونُ النهار من قدم العهـ ـد وما مسّ لونها طول عهدي ؟

(١) فريتم = فرأيتم

هل مع الدهر أسرار ما كان عصفور من سلوم يغرد لي يرثي ؟
ذاك في التعنيط قد ذاب اللبد ر ر بقي البدن وانحز زبدتي
قد عنت اليهود من عبد فرعو ن في (مصر) كان أول عقد
أنا أم التشريع قد أخذ الزو ران مني الأصول في كل حد

الى آخر هذا الفخر ، والقصيدة من الوجهة الأسلوبية قوية السبك — ما في ذلك شك — وهي من الناحية الخطابية بالغة حدود القدرة . فهي صالحة للإلقاء في المحافل ، جديرة بأن تنال الاعجاب من حيث قوة اللفظ وغزارة الموسيقى وبراعة الأداء . ولكنها من الناحية التاريخية لا تستطيع أن تذهب الى جانب قصيدة فرقي ، لأن حافظاً في محاولته كشف النواحي التاريخية كان صريح المرور بما لم يصور شيئاً كما صور شوقي ، وكان في امكانه وهو يقول :

فسلم البحر من بلاه سفيني وسلوا البر عن مراتع جردي[1]

أن يرسم صوراً يستمد ألوانها وخيالها من الصور التي اختزنتها ذاكرته من حياته في الجيش ومن قراءاته في التاريخ فيأتي بصور فريدة ، ولكنه لم يوفق الى ذلك .

* * *

هذا من الجانب المصري القديم في التاريخ ، وأما الجانب الاسلامي فقد عرض له شوقي بكثير من القصائد لعل أولها قصيدة « نهج البردة » التي عارض بها قصيدة البوصيري واستهلها بالنسيب ، وهي التي يقول في مطلعها .

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفكك دمي في الأشهر الحرم

وضع فيها بعد خلال إقامته في اسبانيا قصائده التي عرض فيها للتاريخ الاسلامي وطبعت بعد وفاته في كتاب « دول العرب وعظماء الاسلام » نظم فيها من سير الرجال ما استطعم — كما يقول — وقد زم في نظمها ما لا يلزم ، ولو أنه كان يرى الأليق والأحزم به ترك ذلك القيد . وبدأ هذه المجموعة التاريخية بالكلام على أمة العرب ثم انتهى فيها الى الكلام على دولة الفاطميين .

(١) الجرد = الخيل . ويريد بطيوش البر =

ولكن شوقيًّا في هذه المجموعة غيره في نواحي شعره الأخرى التي نجد فيها صورة إبداعها عن حين أنه في كثير من قصائد هذه المجموعة أقرب الى روح أدبية إبن هانئ وأمثالها البعيدة عن نفس الشعر وروحه إلاّ في أبيات قلائل ، فهو يقول مثلاً :

الخلفاء الراشدون أربعة مرضيّة سُلْطتهم متّبعة
العمران وابن أروى(١) وعلي في الذروة الشمّاء والأوج العلي

وليس في هذه المجموعة ما يُعدّ تحفة فنّية رائعة سوى القصيدة التي سمّاها « سقر قريش » وهي موشّحة نهج فيها سبيل موشحة ابن سهل الاندلسي شاعر أدبيليّة وسَبْتَة ، وهي التي يقول في مطلعها .

هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أن قد حمى قلب صبٍّ حلّهُ عن مكنسِ
فهو في نارٍ وخفقٍ مثل ما لعبت ريحُ الصَّبا بالقبسِ

وقد عارضها أيضاً الوزير أبو عبدالله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب فقال :

حادك الغيثُ إذ الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلاّ حُلُماً في الكرى أو خلسة المختلسِ

وقد أبدع شوقي في موشّحته وأتى فيها بصور جميلة . وخالف فيها القاعدة التي التزمها في جميع قصائد هذه المجموعة . وقد جاء هذا الابداع من الجوّ الذي نُظمت فيه فقد كان شوقي مقيماً بالاندلس فهو يحسّ بزفرة العربي على هذا الفردوس الضائع من العرب . ولذلك برزت له موشحة ابن الخطيب فعارضها وكأن الصدى يؤوب في مسمعه « يا زمان الوصل بالاندلس » فنبعت فيه لمحات من ملك العرب ، وبرزت له شخصية عبدالرحمن الداخل

على أن هذه القصيدة بالذات قد ظهرت على انفراد في الجزء الثاني من الشوقيات مما يدلّ على أنها كانت عند شوقي خلال نظمها في منزلة غير منزلة زميلاتها في كتاب « دول العرب وعظماء الاسلام » إذ نظمت بروحٍ وفنٍّ مختلفين عن غيرها ، وهي قريبة في نفسها الى أندلسيته المشهورة « يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا ... » وقد صوّر شوقي في قصيدته « صقر قريش » قصة عبد الرحمن الداخل أول ملوك بني أمية في الأندلس . وربما كان الى

(١) العمران = أبو بكر وعمر ... وابن أروى = عثمان بن عفان .

جانب إعجاب شوقي بهذا البطل العربي الذي ظفر بعد أن تحطم ملك الأمويين في الشرق — في أن يقيم بنفسه لأسرته مُلكاً جديداً في الغرب — إعجاب آخر هو ما نعلّل به قوة هذه القصيدة ؛ ذلك أن عبد الرحمن الداخل كان شاعراً ، ولعلّ من أروع الصور عنه تلك التي رسمها الأستاذ علي أدهم فهو يقول « وعبد الرحمن الداخل وليد أيام الثورات العاصفة والذي نشأ مثلها ينشأ ابن الملاّح فوق الراخر الطوح وعاش عمره فوق غوارب الظواهر والثورات يصارعها وتصارعه لا تشمّ من شعره عبق الوحي ونفحة القدس ولا تديم فيه بروق الأفكار البعيدة الخاطفة وأضواء النظرات المترامية الشاملة . ولكن المصائب التي حلّت بقومه وسارت بها الأخبار وتحدّث عنها الركبان عمّقت نفسه وأفسحت خياله وحرّكت فيه عواطف الحقد والكراهة من ناحية ولكنها من ناحية أخرى أطلّت به على جانب من جوانب الحياة الشعرية لأن ما رآه من تقلّب الحظ وتداوُل الأيام وما قاساه من الآلام بصّره رواية الحب البشرية في فصولها المختلفة وجعله يعرف الحفاء ويحسّ الألم » فمن رقيق شعره تلك الأبيات التي أرسلها إلى أخته بالشام ويقول فيها :

أيها الراكب المياسم أرضي ... اقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي (١)

ذلك من أسباب تعليلنا لقوة قصيدة شوقي ... فشوقي شاعر وعبد الرحمن الداخل شاعر. وشوقي بعيد عن وطنه اتخذ من الأندلس وطناً آخر يقضي فيه سنوات نفيه وقد ترك أمه في مصر بعيدة عنه ؛ وعبد الرحمن بعيدٌ عن وطنه هاربٌ من أعدائه قد فارق أهله الشرّدين وقد ثلّ عرشهم فاتجه مغامراً مخاطراً صوب المغرب ثم الى الأندلس وفي نفسه آمال ... فكان من كل ذلك عونٌ لشوقي على أن يرسم لهذا العبقري الذي وفد على الأندلس وقد أخذ الخلاف مأخذه هناك فاستطاع أن يثبّت أقدامه وأن يرمي دعائم ملكه ، ذهب في

(١) كتاب « سفر قريش » — ص ١١٢ — للاستاذ علي أدهم ، أصدرته لجنة « المقتطف » عام ١٩٣٨

الوقت الذي هيأته الأقدار للملك العربي أن يظلّ في العالم الغربي منشور الضوء فكأنّ الأقدار اختارته لهذا وأرادت بالعرب خيراً فقدر:

رُمحوا بالعبقريّ الثّائر البحر الهمّة الصعب القياد
مدّ في الفتح وفي أطنابه لم يقف عند بناء ابن زياد

ومن ثمّ يعطينا شوقي صوراً جميلة لهذه البطولة الفذة. ومن روائعه تلك العبرة التي تمثل الداخل وهو في رحلته:

بسلام يا شراعاً ما درى ما عليه من حياه وسخاه
في جناح الملك الروح جرى ويريع حفّها اللطف رُخاه
غسل اليمّ جراحات الثرى ومحا الحدة من بحر الرحاه
هل درى أندلسٌ من قدما داره من نحو بيت المقدس
بسليل الأمويين سما فتح موسى بستقرّ الأسس

وهذه القصيدة هي من روائع شوقي في التاريخ.

* * *

فاذا التفتنا ناحية حافظ نرى أثر التاريخ الاسلامي في شعره وجدنا له قصيدة نظمها عام ١٩١٨ من ثاني الخلفاء الراشدين اتفاوق عمر بن الخطاب، ولم يتبع فيها طريقة شوقي من حيث نظمها من باب الرجز بل جعلها كلها من قافية واحدة بلغت أكثر من ثمانين ومائة بيت. غير انه لم يأت بشيء مبتدع فأنت لا تقع فيها على وثبة خيال أو لمعة ابتكار فهي أقرب الى السرد الاخباري الراوي منها الى الفن القصصي الشعري.

فهو يقول منها في إسلام عمر:

ويوم أسلمت عزّ الحقّ وارتفعت عن كاهل الدّين أثقال يعانيها
وصاح فيه (بلالٌ) صيحة خشعت لها القلوب ولبّت أمر باريها
فأنت في زمن (المختار) منجدها وأنت في زمن (الصدّيق) منجيها

وهذه القصيدة لعلها من آثار صحبة حافظ للامام محمد عبده فلك حبيبة نفسه حتى

وجدت فرصة تكوينها . يقول الأستاذ عبد الحميد العبادي بك : « ولا نعرف بالضبط الباعث لحافظ على نظم قصيدته ، فلعلّ الباعث له ما رآه من التياث حال العالم الاسلامي بإثر الحرب العالمية الأولى وفساد أمر الخلافة ، فأراد أن يجلو على المسلمين صورة لأقوى شخصية ظهرت في الدولة الاسلامية ، وهي شخصية عمر بن الخطاب ، فيكون لناشئة منها مثال يحتذونه ويلهجون على منواله . وقد يكون حافظ أراد بنظم هذه القصيدة أن يجري في غبار شوقي ، ولا سيما بعد أن نظم شوقي نهج البردة »[1]

نعم قد يكون التعليل الثاني الذي أشار اليه الأستاذ العبادي بك هو الباعث لحافظ على نظم قصيدته العمرية . ولكن هل استطاع أن يجري في غبار شوقي ؟ الحق يلزمنا أن نقول إن قصائد شوقي في التاريخ الاسلامي منذ أنشأ نهج البردة حتى نظم مخمرسته في دول العرب ترتفع عن المستوى الذي جرى فيه حافظ بالرغم مما في المجموعة الأخيرة من بُعد من روح شوقي الفنية . ولكن الحق يلزمنا أن نقول إن حافظاً قد بلغ في « عمريته » غايته في دقة النظم وسبك العبارة .

فن الشاعرين

أما وقد انتهيت من الموازنة في نطاق محدود بين آثار حافظ وشوقي في بعض النواحي التي اشتركا فيها أو تقاربت صورة المشاركة ، فقد وجب عليّ أن اختم دراستي هذه بكلمة وجيزة عن فن هذين الشاعرين .

أول ما يلاحظ على فنّ شاعرينا المادية التي لم يستطيعا أن يبرآ منها حتى في الأوصاف التي تنأى عن المادية ، وقلّ أن تصفو صورها منها . فشوقي مثلاً — وهو أقلّ من صاحبه انغماساً في هذه الناحية — حين يصف منظراً طبيعيّاً لجريان الماء وخريره يصفه كأنه وضع العروض تبينه وتصيّده . ولكن شوقيّاً كان يتعبه صوب الخيال في كثير من قصائده

(١) مجلة « الكتاب » — ص ١٠٨٠ الجزء العاشر . أكتوبر ١٩٤٧ ، السنة الثانية .

وبخاصة ما كان متصلاً بالطبيعة ، على أن اتجاهه للحياة الطبيعية لم يكن استغراقاً في الطبيعة ولكنه كان افتتاناً حسيًّا أكثر منه إحساساً روحيًّا .

وتأتى التفات شوقي إلى المعاني غامضة من خصائص فنه وإن كانت معارضاته للقصائد الشعراء الأقدمين وهبه في أول أمره أن الغرض من اللفظ يتصدى عليه جوّ قصيدته ، على أنه لم يكن يهتم ، كل الاهتمام ، باللفظ قدر اهتمامه بالمعنى — وإن كانت أكثر معانيه مما دارت في قصائد قديمة — ولذلك لن نحسّ في قصائده أن الشاعر كان يكدّ ذهنه ساعة نظم قصيدته وفي ذلك يقول مطران بك « لا يجهد فكره ولا يكدّه في معنى أو مبنى » (١) وإن بدا لنا كدّ الذهن في بعض أبيات قصائده التي عنّى نفسه فيها بالتقيد بالألفاظ الغريبة . ومن حسن الحظ انه يبدو أن شوقيًّا كان يحسّ أن هذا مخالف لطبيعته الفنية فعمل على التخلص منه وعلى مشابهة وحي طبيعته . ويرى الأستاذ البشري انه « إذا كان لهذا الشاعر صنعة أو كان له في شعره ما يمدّ من عمله ، فهو اختياله للمعنى أولاً ، ثم وأنى اللفظ ولان واتضح وأشرق وإلاّ فلا مَسّ هذا اللفظ الهبل » (٢) وهو في ذلك على النقيض من حافظ الذي كان للفظ الثري الخطوة الأولى في فنه ، أما المعاني فتجيء في الدور الثاني أو الأخير . وقد قال هو نفسه « ... أما أنا فأُمسيتُ المعنى اذا لم يتفق لي لفظ رائع » (٣) ... وهذا مصداق لما أشار إليه صديقه مطران قبل ذلك بسنوات عديدة حين قال « إنه في أقصى شعره يؤثر البيت الجياد لفظاً على الجياد معنى » (٤) ... ولهذا جاءت ديباجته أثرى من ديباجة كثير من معاصريه ، ولقد قويت هذه الديباجة تبعاً لطبيعة حافظ من ناحية ، ومن الناحية الأخرى

---

(١) من كلمة للاستاذ خليل بك مطران في « مختارات الزهور » التي أصدرها الزميل الاستاذ انطون الجميل (باشا) سنة ١٩١٠ — ص ٢٠ طبعة مطبعة المعارف

(٢) كتاب « المختار » للمرحوم الاستاذ النبيغ عبد العزيز البشري — ص ٨١ من الجزء الاول — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥

(٣) من حديث لحافظ مع محرر مجلة « الهلال » صفحة ٩٠٧ جزء ٨ (يونيه سنة ١٩٢٨) السنة ٣٦

(٤) صفحة ٨٠ من « مختارات الزهور » التي أشرنا إليها

للجانب الذي وقف فنه فيه وهو مخاطبة الجماهير في قضايا سياسية تحتاج الى اللفظ القوي المثير الجذّاب على أن لا يكون فيه إغراب ، ومن ذلك كان يكدّ ذهنه ليقع من محفوظه على بغيته . وقد قال عنه البشري إنه « مهما اختلف الشعراء في شعر حافظ وفي شاعريته فإنهم لم يفترقوا قط في أنه كان من أمهر الصاغة في هذا الزمان » (١) ... أما شاعريته فكانها بقطة وقلبه لا يصل فيها غير عقله الواعي . والشعر عنده وسيلة لى القبض من شوقي الذي كان الشعر عنده — في رأيي — غاية ، وثمة فرق بين الاتجاهين ، وإذكانت الأخيلة عند الشاعرين — كما قلت — مادية بحتة . ولكن شوقيًّا كان عند ما يحسّ أن المادية طاغية على أخيلته ومعانيه وأنها تضايقه في بعض الأحيان ، يحاول أن يفرّ منها فيتجه صوب الدين لينظم قصائد في ميلاد الرسول وفي تحية العام الهجري وما شابه ذلك ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستطيع الفرار عن طبيعته لأن هذه الأخيلة كانت تلاحقه أيضاً ... أما حافظ فلم يستطع الإفلات من قيود ذهنه ومن الفكرة القديمة السائدة عن معنى الشعر وطبيعته وتناسى أن الشعر على حد قول الدكتور أبو شادي « روح وتصوّف أي اندماج كونيّ في الجمال والحياة قبل كل اعتبار آخر »(٢) ولذلك ظلّ حافظ لا يحيد عن طريقه ولا يتجه اتجاهات جديدة أو يحاول محاولات جريئة بل ظلّ يتابع ظلّ الأقدمين دون أن يتعمق أو يتناول أحاسيس النفس البشرية فيخلق من الصور الفاتنة لها ، وقد حصرها تماماً ، صوراً رائعة خالدة تمثل نفسيات الناس لا نفسيته هو في عمق وتحليل وكشف عن خبايا تلك النفوس وآلامها الخفية لأن الصعوبة كانت كما يقول الأستاذ الزيات « من أين خصائص حافظ »(٣)

حسن كامل الصيرفي

(١) من مقال للمرحوم الشيخ عبد العزيز البشري بمجلة « أبولو » ص ١٣١٠ العدد ١١ (يوليه سنة ١٩٣٣) من المجلد الأول

(٢) من مقال للدكتور أحمد زكي أبو شادي عن حافظ في مجلة « أبولو » ص ١٢٦٢ من العدد المشار اليه

(٣) كتاب « في أصول الأدب » للأستاذ احمد حسن الزيات صفحة ١١٠